"أثر القرآن الكريم في الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري" دراسة بلاغية تحليلية

د٠ فائزة بنت سالم صالح أحمد (*)

المقدمة :

إن الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا ويرضى ، والشكر له على ما أولى من نعم سابغة وأسدى .

نحمده سبحانه وهو الولي الحميد ، ونتوب إليه جل وعلا شأنه وهو التواب الرحيم ، ونصلي ونسلم على خير البرية أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين :

إن أفضل ما يُتقرب به إلى الله تعالى قراءة كتابه الكريم ، والتبحر في علومه ومعانيه، ثم قراءة سنة نبيه صلى الله عليه وسلم التي أتت مع القرآن لتكون تشريعاً فريداً به يستقيم أمر الأمم .

ومما لا شك فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يتتلمذ على يد أحد أو يأخذ منه ، وكان من قدر الله أن تكون حكمته العليا وتربيته الإلهية أن يأخذ علمه من الله تعالى حيث ورد حديث مرفوع "أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي"(١)، فقد نزل على قلبه القرآن فوعاه، وصار غامراً به قلبه ونفسه ولسانه، وكان خلقه القرآن فعاش به وانصهر في قلبه وروحه، فكان أبلغ الناس قاطبة، ويظهر تأثره به جلياً من خلال كلامه، فكلامه مبين

(*) أستاذ البلاغة المشارك بمعهد تعليم اللغة لغير الناطقين بها – جامعة أم القرى– مكة المكرمة– المملكة العربية السعودية.

(١) قال ابن تيمية : معناه صحيح ولكن لا يعرف له إسناد صحيح .

للقرآن ومخصص له، ومقيد ، فكل ما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من القرآن، فكان كلامه أعلى بيان بشري فهو أبلغ البشر ، وكان لكلامه خصائص هي من القرآن وهي من أبواب معاني القرآن لكن فرق بين كلام الله وكلام رسوله، فهما وإن يلتقيا في أمور فإنهما يختلفان في أمور ينأى بأحدهما عن الآخر، ويكون الفرق بينهما كالفرق بين المعجز وغير المعجز ، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق .

يقول الرافعي: " فاعلم أن نسق البلاغة النبوية إنما هو في أكثر الحد الإنساني من ذلك الإعجاز ، يعلو كلام الناس من جهة وينزل عن القرآن من جهته ، فلا مطمع لأبلغ الناس مما وراءه ، ولا معجزة عليه فيما دونه "[1].

وشدة صلته صلى الله عليه وسلم بالله وبالقرآن الكريم كونت له فكراً ولساناً صقل بهذا البيان فخرج كلامه على أحسن ما يكون عليه كلام بشر.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس مع صحابته ويحاورهم ويحادثهم ويجيب عن أسئلتهم والقرآن الكريم بكل ما فيه حاضر بين عينيه ، فما من حديث قاله إلا وله صلة بالقرآن يدركه من يدركه ويخفى على الكثير ، فهو يفهم من خفايا القرآن ومعانيه ما لا يدركه غيره، وقد استوقفني قول ابن برجان الذي نقله السيوطي: " ما قال النبي صلى الله عليه وسلم من شيء فهو في القرآن وفيه أصله قرب أو بعد ، فهمه من فهمه وعمه من عمه "[2] ، وكلامه هذا يحتاج إلى وقفة وإلى دراسة دقيقة في كلامه صلى الله عليه وسلم لمعرفة أصوله ورده إلى آيات القرآن الكريم ، وإيجاد العلاقات اللغوية .

وسوف أقف في هذه البحث على بيان أثر القرآن الكريم في كلامه صلى الله عليه وسلم من الناحية البلاغية في صحيح البخاري ، ولا تُعدُّ هذه الدراسة دراسة

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٤١ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢٥٩/١.

مستقلة تنهض وحدها بنتائجها أو تستقصي بابها ، إنما هي جزء من دارسة شاملة لكل ما قاله عليه السلام مما ثبت في كتب الحديث ورده إلى القرآن الكريم، وحصر المعاني التي يتفق فيها الحديث مع القرآن ، وما الأساليب التي جاء فيها، مما قد يفرد له بحث ماجستير أو دكتوراه .

وقد لاحظت أن كلامه صلى الله عليه وسلم في صلته بالقرآن الكريم لا يتعدى ثلاثة :

إما أنه يقتبس من القرآن الجمل والعبارات في المعنى نفسه أو في معان أخر، أو يشرح بكلامه آية من القرآن ، أو يشير بكلامه إلى معنى من معاني القرآن الكريم ، ولما كانت دراستي دراسة بلاغية تحليلية فقد أدرجت هذه الأنواع تحت أبواب البلاغة التي اعتمدها أهل العلم من معان وبيان وبديع.

أهمية الدراسة :

تتلمس هذه الدراسة إيجاد العلاقات الواضحة بين كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ولا تلوي أعناق المعاني مما قد يُحمِّل الكلام على غير وجهه؛ لأنني أجزم أننا لا نكاد نقف على حديث من أحاديثه صلى الله عليه وسلم إلا ووجدنا له خيطاً ممتداً إلى كلام الله سبحانه وتعالى قرب أو بَعُد.

خطة البحث :

جعلته في تمهيد وخمسة مباحث وخاتمة وهي :

التمهيد : صحيح البخاري ومكانته .

المبحث الأول : الكلمة القرآنية في الحديث النبوي .

المبحث الثاني : الجمل القرآنية في الحديث النبوي .

المبحث الثالث : توكيد المعاني وتفصيلها .

المبحث الرابع : الصورة البيانية القرآنية في كلامه صلى الله عليه وسلم .

المبحث الخامس : أثر القرآن الكريم في أبواب البديع في كلامه صلى الله عليه وسلم .

الخاتمة : نتائج البحث .

الدراسات السابقة : لم أجد دراسات تهتم بأثر القرآن على كلام الرسول صلى الله عليه وسلم من الناحية البلاغية ، وأكثرها كان يركز على أثر القرآن على غيره من البشر ، فهناك دراسات كثيرة في أثر القرآن على شعر الشعراء أو ما كتبه الكتاب ، ولذلك أقدمت على هذه الدراسة .

* *

التمهيد

صحيح البخاري ومكانته

هو (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) اشتهر بصحيح البخاري ، مؤلفه : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ت (٢٥٦ هـ) يتناول بعض ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أحكام الشريعة العملية والاعتقادية، مقسمة على سبعة وتسعين كتاباً ، بدأه بكتاب الوحي وختمه بكتاب التوحيد .

وتظهر مكانته من جهتين ، من جهة مؤلفه وتميزه في العلم ، والثاني لما فيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، يقول البخاري " كنا عند إسحاق بين راهويه فقال بعض أصحابنا لو جمعتم كتاباً مختصراً لسنن النبي صلى الله عليه وسلم فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب "[١].

وهو أصح الكتب بعد كتاب الله بإجماع العلماء ، يقول ابن الصلاح في البخاري ومسلم " وكتابهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز ".

ويقول النووي " اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان البخاري ومسلم "[٢] .

لذلك فهما أقرب إلى القرآن وإلى أسلوب القرآن الكريم .

مما هو متقرر ومعلوم عن منهج الإمام البخاري في صحيحه ، أنه يكرر الحديث، ويورده في عدة أبواب، ولكن هذا التكرار منه لا يخلو من فائدة؛ كاستنباط مناسب للباب الذي يترجمه، أو إيراده بإسناد آخر لتقويته، أو لبيان اختلاف في ألفاظ الحديث الواحد، وغير ذلك من فوائد، ولكن وجد الناس من بعده صعوبة في الوصول إلى الأحاديث المتكررة المتفرقة في الأبواب لمن كان مقصده

---

(١) مقدمة صحيح البخاري : ٣٣/١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي : ١/ ٧٢.

أخذ أصل الحديث ، حيث يقول النووي في مقدمة كتابه شرح صحيح مسلم: " فإنه يذكر الوجوه المختلفة في أبواب متفرقة متباعدة ، وكثير منها يذكره في غير بابه الذي يسبق إليه الفهم أنه أولى به فيصعب على الطالب جمع طرقه وحصول الثقة بجميع ما ذكره من طرق الحديث "[1]، ولذلك قام عدد من العلماء قديماً وحديثاً بوضع مختصرات لصحيح البخاري تسهل على القارئ الوصول للحديث وهي :

– مختصر الإمام الزبيدي ، المسمى بالتجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للإمام زين الدين الزّبيدي .

– مختصر الشيخ العلامة محمد بن ناصر الألباني .

– مختصر الشيخ سعد بن ناصر الشتري .

وقد اعتمدت في دراستي على كتاب التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح لزين الدين الزبيدي[2] المتوفى عام (٨٩٣) هـ لسهولة البحث فيه، وهو من أشهر المختصرات عند العلماء وطلاب العلم؛ لأن المقصد أخذ أصل الحديث.

* *

المبحث الأول

(١) شرح صحيح مسلم للنووي : ١٢٤/١

(٢) ترجمة زين الدين الزبيدي صاحب التجريد الصريح أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، زين الدين الزبيدي الزَّبِيدِي (٨١٢ – ٨٩٣ هـ = ١٤١٠ – ١٤٨٨ م) محدث البلاد اليمنية في عصره، نسبته الأولى إلى شَرْجة (حيس في جنوبي زبيد) واشتهر وتوفي في زبيد، له (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح – ط) وهو مختصر صحيح البخاري ويعرف بمختصر الزبيدي، و(طبقات الخواص – ط) في سير أولياء اليمن، و (الفوائد – ط) و(نزهة الأحباب) أدب نقلا عن: الأعلام للزركلي.

الكلمة القرآنية في كلامه صلى الله عليه وسلم

من يتأمل ألفاظ الحديث النبوي يجدها تدور حول ألفاظ القرآن الكريم ، مثل : إقامة الصلاة – إيتاء الزكاة – الإشراك بالله – الساعة– الجنة – النار – الحق – المنافقون – الكافرون – العلم – العلماء – الملائكة ، مما لا نجدها في الشعر الجاهلي ، وقد يقال إن شعر أمية بن أبي الصلت فيه كثير من هذه الألفاظ فنقول بأن الدارسين لشعره أثبتوا أن أكثر شعره من المنحول ، وما صح منه قليل جداً

وبهذا يتبين لنا كيف أن الكلمة القرآنية تكتسب معانيها من مكانها في الآية، لأن اللفظ جزء من التركيب وهو أساس في بناء نظم الكلام ،وللكلمة القرآنية أثرها حين تقع في كلامه صلى الله عليه وسلم .

والجاحظ أول من اهتم بقضية اللفظ والمعنى ت ٢٥٥هـ وما زالت مقولته المشهورة يرن صداها (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ) ، وتمتد العصور وتتعدد الآراء في اللفظ والمعنى عند العلماء ، وكل أدلى فيها دلوه ، تحدث عنها ابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وابن طباطبا وقدامة والآمدي والقاضي الجرجاني وأبو هلال العسكري وابن رشيق ، ثم يأتي عبد القاهر الجرجاني فيقرر أن جمال العبارة يعود إلى حسن أداء الكلمات لمعانيها ، وما بين الألفاظ التي تليها ، فهو يرى أن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي تفيد بها الكلام غرضاً من أغراضه ، ثم يقول: " إن الفصاحة لا تتوقف على كون هذه الكلمة مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية أو أن تكون حروف هذه أخف ، ولكن تصير فصاحتها بالنظر إلى مكانها في النظم ومن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها "[١].

(١) دلائل الإعجاز ، مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، للدكتور محمد أبو موسى : ٨٧.

والكلمة القرآنية تكون أبلغ ما تكون حين تكون في الآية القرآنية ولها موقع من النظم ، ثم إنها تكون غاية في بلاغة البشر حين تكون في كلامه صلى الله عليه وسلم ، وبما أن السنة النبوية جاءت تشريعاً ثانياً توضح القرآن، فكان من البدهي أن يحتوي الحديث على ألفاظ من القرآن الكريم .

وقد توافر في كلامه صلى الله عليه وسلم الخلو من العيوب التي تعارف عليها العرب من تنافر وغرابة لفظ ومخالفة وضع ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد وضع معاني لألفاظ كان يجهلها العرب ، وسأل عنها الصحابة وهم العرب الذين عاشوا في عصر بلغت فيها اللغة شأوا ومبلغاً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيط بجميع ألفاظ اللغة وسأله الصحابة عن معانيها، فعن أبي عامر أن رجلاً قال : يا رسول الله من أهل النار قال : كل قعبري قال : يا رسول الله ما القعبري ، قال : الشديد على الأهل الشديد على العشيرة الشديد على الصاحب "[1].

ومن الألفاظ التي وردت في كلامه صلى الله عليه وسلم هي من القرآن الكريم ، فعن بريدة رضي الله عنه أنه قال في يوم ذي غيم : بكروا بصلاة العصر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله "[2].

والحبط هو وجع يصيب الماشية من كلأ حتى تنتفخ بطونها فلا يخرج عنها ما فيها ، وهو من التخبط بمعنى الاضطراب [3].

وقد جاء الحبط في كلامه صلى الله عليه وسلم مثلاً لمن يجمع الدنيا ويحرص عليها في حديث :" إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلمُّ إلا آكلة

---

(١) غريب الحديث للخطابي : ٦٦/١ .
(٢) التجريد الصحيح : ١١١ ، كتاب مواقيت الصلاة .
(٣) لسان العرب : ٧ / ٢٧٠.

الخضراء حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فتلطت وبالت ورتعت .... "[١].

والحبط يأتي في القرآن في مقام أعمال الكفار ويعنى بها الكفر، قال تعالى: (..... وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[٢].

وقال تعالى : (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٣].

ويأتي الحبط في الحديث للتحذير والتغليظ لأجل المداومة والتبكير لصلاة هذه الفريضة التي وقتها قصير ، كما في الحديث ، فمن ترك صلاة العصر لا ينفى عنه الإيمان ، وخص العصر بالذكر هنا لأنه وقت ارتفاع الأعمال ، ونزول ملائكة الليل ، ولأن أكثر ما ينشغل الناس فيه بالبيع والشراء وإنهاء أعمالهم قبل مجيء الليل .وجاء هذا المعني في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)[٤]، فحبط الأعمال ليس معناه الكفر، فالجهر له بالقول يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم ، فحبط الأعمال جاء للتحذير والزجر[٥].

ويضيف الرسول صلى الله عليه وسلم معنى للكلمة يقتبسها من القرآن فالكفر في القرآن يأتي بمعانٍ عدة منها الجحود " فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به "[٦]

---

(١) التجريد : ٢٢٥ ، باب الزكاة .

(٢) سورة المائدة : ٥.

(٣) سورة الأنعام : ٨٨.

(٤) سورة الحجرات : ٢.

(٥) انظر التحرير والتنوير : ٢٢١/٢٦.

(٦) البقرة : ٨٩.

وتأتي بمعنى كفر النعمة قال تعالى " ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد "(١).

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: "أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط".

* *

(١) إبراهيم : ٧.

المبحث الثاني

الجمل القرآنية في كلامه عليه السلام

قد تتوافق عبارات وجمل في كلامه صلى الله عليه وسلم مع ألفاظ القرآن في موضوعات بعينها ، كتوافقها في البيعة التي بايع بها النساء والتي وردت في سورة الممتحنة ، وقد بايع الرسول الصحابة بها .

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب في ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه "(١).

وهذا الحديث يطابق آية الممتحنة التي بايع فيها رسول الله النساء اللاتي أتين من مكة مهاجرات قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)"(٢).

سورة الممتحنة سورة مدنية، وموضوع السورة تحذير المؤمنين من موالاة الكفار ، والرخصة في حسن معاملة الذين لم يقاتلوهم قتال عداوة في الدين ، ثم بينت السورة حكم المهاجرات من مكة الفارات بدينهن من أزواجهن الكفار واختبار صدق إيمانهن ومبايعتهن على أحكام الشريعة ، وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية، ومن هؤلاء الفارات بدينهن، أم كلثوم بنت عقبة بن معيط وسبيعة

---

(١) التجريد الصحيح : ١٣.

(٢) سورة الممتحنة :١٢.

الأسلمية وأميمة بنت بشر ، وقد طلبهن أزواجهن فأنزلت هذه الآيات التي تمنع من ردهن إلى ديار الكفر ومبايعتهن(١).

والحديث قد جاء في مبايعة المؤمنين ، ويتشارك نص الحديث مع نص الآية في ترتيب بنود البيعة، فأولاً ترك الإشراك بالله ثم النهي عن السرقة ثم الزنا ثم قتل الأولاد ثم البهتان ثم عدم عصيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأفعال في آية الممتحنة اتصلت بها نون النسوة للغائب: يشركن – يسرقن – يزنن– يقتلن – يأتين – يفترين – يعصين – فبايعهن ، وفي الحديث بواو الجماعة للمخاطب : تشركوا – تسرقوا – تزنوا – تقتلوا – تأتوا – تفترونه – تعصوا . والغيبة تناسب ستر النساء ، والمخاطب الحاضر تناسب الرجال .

وقد شملت البيعة النهي عن ستة أمور : عن الشرك بالله والسرقة والزنا وقتل الأولاد والبهتان ومعصية الرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء الخطاب للنساء بالغيبة لأنه أمر من الله لرسوله وخطاب الرجال كان منه صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وقد استمر العمل بهذه البيعة حتى فتح مكة ، وحين ذكر الإمام البخاري عن عبادة بن الصامت قوله: " وكان شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة أوهم ذلك أن البيعة إنما حصلت في مكة ، وقد ذكر العيني أدلة صريحة تدل على أن البيعة في الحديث كانت بعد نزول الآية(٢).

وابتدأت المبايعة بطاعة الله في عدم الإشراك به، وانتهت بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، و"شيئاً " في "ولا تشركوا بالله شيئا" أفادت العموم ،ثم جاء الفعلان "لا تسرقوا ولا تزنوا" من غير مفعول ليدل على أن النهي يشمل كل سرقة وكل زنا ، ثم نهي عن قتل الأولاد خاصة لأن من عادات الجاهلية أنهم يقتلون الإناث من أولادهم خيفة العيلة والعار ، ثم نهاهم عن الإتيان بالبهتان والمراد به

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٢/٢٠ .

(٢) انظر عمدة القاري : ١٥٨/١ وما بعدها .

الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه ، والافتراء هو اختلاق الكذب وكأنهما من باب واحد ، وهو كناية عن الزنا في الآية، فقد كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود فتقول هذا ولدي منك[١]، وخص الافتراء بين الأيدي والأرجل لأن البطن الذي تحمله فيه بين الأيدي والأرجل ، وهما كناية عن الذات، لأن معظم الأفعال تكون بهما ، ثم لما استعملت هذه الجملة في بيعة الرجال احتيج إلى حملها على غير ما ورد في بيعة النساء ، والمعنى لاترموا أحداً بكذب ثم تبهتون به غيركم[٢]، وفي ذكر الأيدي والأرجل تقرير وتصوير لبشاعة هذا الفعل، وفي إسناده لكم وإضافته للنفس أي من قبل أنفسكم لأنهما مكان وموضع الأفعال، وابتدأت المبايعة بطاعة الله وختمت بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فكأن الأمر بطاعة الله ورسوله، يضمان الامتثال بأوامر كثيرة .

ثم إن الحديث قد ذكر جزاء من نقض البيعة ، وذكر لها ثلاثة أحوال بجمل شرطية متقابلة ، وقد ارتبطت بالجزء الأول من الحديث بالفاء الفصيحة في قوله " فمن وفّى منكم .." وكأن المعنى وإن كنتم بايعتم على ما سبق فمن وفى منكم فله كذا وكذا ... ، ثم عطفت عليها الجملة الثانية ثم الثالثة ، وكلها معطوفة على جملة "بايعوني"، الجملة الأولى فمن وفَّى بالمبايعة ، وحذف المفعول لدلالة العموم وأن من وفَّى بكل بنود البيعة ، فأجره على الله ، وهذه من التعبيرات القرآنية قال تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ)[٣].

---

(١) انظر روح المعاني : للألوسي ٨٠/٢٨ .

(٢) انظر عمدة القاري :١٥٩/١.

(٣) سورة النساء : ١٠٠.

وقال تعالى : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[1].

والأجر عندما يكون من الله وهو أكرم الأكرمين يكون لا نهاية ولا حد له.

والنوع الثاني : "من أصاب من ذلك شيئاً " أي من ارتكب وخالف بنداً من بنود هذه المبايعة فاستحق العقاب ، وأسند العقاب للمجهول في " فعُوقب " لأنه معلوم وهو ليس مناط الحديث عنه ، ولكل تشريع حدٌّ أحده الله وقضى به على من يرتكبه ، والقصاص هو كفارة مرتكب الحد ، بدلالة قوله عليه السلام .

والنوع الثالث : من ارتكب الخطيئة ثم ستره الله ولم يصل أمره إلى ولي الأمر كان مرده إلى الله ، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، وفي هذا بيان لسعة فضل الله ، وإشارة إلى قوله تعالى: " فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء " في سورة البقرة ، وكأن المعنى ومن ستره الله فعليه التوبة هذا منطق السياق ، ولكنه قال فهو إلى الله ، ثم فسر هذه الجملة إن شاء عفا عنه حين يتوب ، وإن شاء عاقبه حيث يصر على المعصية مع ستر الله له .

ومن العبارات القرآنية في الحديث النبوي الشريف قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال " أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان "[2].

---

(١) سورة الشورى : ٤٠.

(٢) التجريد الصحيح : ٢١٧ ، باب الزكاة.

وعبارة " حتى إذا بلغت الحلقوم " من القرآن الكريم ، يقول تعالى : (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)) [١]. وقد حُذف الفاعل للعلم به على سبيل إيجاز الحذف، والحلقوم هو الحلق .

وأي : اسم استفهام يُسأل بها للتمييز بين شيئين ، أو أشياء ، وهي تضاف لمتعدد ، وإن أضيفت لمفرد كما في الحديث فالمراد به متعدد والتقدير : أي أنواع الصدقة أعظم أجرا ، ومثل هذه الأسئلة كانت تكثر في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة ، وكلها تبدأ بأن رجلاً سأل النبي صلى الله عليها وسلم ، وقد سأله الصحابة ، أي الإسلام خير ، وأي الأعمال أفضل ، وأي الأعمال أحب إلى الله ، أي النساء خير ، وغيره كثير مما بُثَّ في كتب السنة المطهرة ، وهي أحاديث كثيرة صالحة للجمع والدراسة؛ لأن من هذه الأحاديث قد ينبثق تشريعاً يفيد الأمة بأسرها .

ويذكر الراوي أن هذا الرجل جاء فقال، فرتب القول على المجيء وهذا ما تفيده الفاء ، وكأنه جاء ليسأل الرسول هذا السؤال ، ثم نلاحظ أدب الصحابة عند سؤالهم ، فقد قال : يا رسول الله، ولم يطرح السؤال ابتداءً ، فهم يقدمون النداء تلطفاً وتأدباً واحتراماً ، ثم ينادونه بالياء التي تفيد بُعد منزلة المسؤول ، ثم قوله يا رسول الله دون غيرها من الأسماء لأن فيها إعظاماً له وبيانا لمكانته عند ربه فهو رسوله ، ثم سأل عن الصدقة التي تكون أعظم أجرا، فلم يقل الصدقة الخير أو الأحسن ، إنما أراد ما يكون أجرها كبيرًا وعظيمًا. وفي القرآن الكريم: (..... وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠))[٢].

---

(١) سورة الواقعة : ٨٣.

(٢) سورة المزمل : ٢٠.

وقيل إن السائل يحتمل أن يكون أبا ذر ، لأنه في مسند أحمد سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أي الصدقة أفضل[١].

وقد كان رد الرسول صلى الله عليه وسلم " أن تصدق "، أي أن تتصدق، فحذفت إحدى التاءيين تخفيفاً من باب التفعل ، " وأنت صحيح شحيح "جملة اسمية حالية ، " تخشى الفقر " جملة فعلية حالية أيضا ، وجملة "تأمل الغني" معطوفة عليها، وجملة " ولا تمهل " معطوفة على " أن تصدق " أي تصدق ولا تمهل ، ثم تأتي جملة " حتى إذا بلغت الحلقوم ....." تفصيل للإمهال وشرح له، وكأن أصل الحديث محصور في جملتين " أن تصدق ولا تمهل "، وجاء الكلام متحدراً يفضي بعضه إلى بعض، وجملة " حتى إذا بلغت الحلقوم " تعبير قرآني" جاء كناية عن الموت، والحلقوم آخر مجرى النفس عند خروج الروح، والمعنى الذي يشير إليه الحديث الحث على صدقة الصحة والخوف من الفقر، ويحذر من إمهالها حتى يأتي الأجل، لأنها حينئذ تخرج من يدك إلى غيرك. ونتأمل ما بين صحيح وشحيح من جناس يلفت السامع بإيقاعها الصوتي إلى أهمية اجتماع الأمرين في الصدقة ، فهما شرطان لعظم الصدقة وأفضلها، كما أنهما لم يعطفا بالواو للدلالة على كمال الصفتين فيه ، ثم تأتي بعدها جملتان متقابلتان " تخشى الفقر وتأمل الغنى"، فذكر الشيء وضده مما يميز المعاني ويوضحها . ومعنى شحيح في الحديث حريص على المال لأن الشح في اللغة معناه البخل مع الحرص[٢]، والشح في المال أن يجد صاحبه وقعاً له في قلبه لما يأمله من طول العمر ويخاف من حدوث الفقر . وفي قوله صحيح بعد شحيح تفسير وتوضيح لمعنى صحيح ، وتتحقق هنا بلاغة الإيجاز في الكلمتين ، ثم جاء تفسيرهما فتمكن المعنى من النفس وكان له وقع حسن .

---

(١) انظر عمدة القارئ : ٨ / ٢٨٠ .

(٢) انظر لسان العرب : ٤٩٥/٢.

المبحث الثالث

توكيد الجمل وتفصيلها

تأكيد المعنى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدلل بآيات القرآن على قوله تأكيداً لها ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ذخراً ، بَلْهَ[1] ما اطلعتم عليه)، ثم قرأ: " فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون "[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (خلق الله الخلق فلما فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال لها : مه ، قالت: هذه مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت : بلى يارب ، قال : فذاك ، قال رسول الله اقرؤوا ما شئتم: " فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم "[3].

ويأتي الحديث شارحاً الآية وموضحاً لها بقوله تعالي في تحريم الشرك: ﴿..... إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ٧٢﴾ المائدة ٧٢ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦﴾ النساء ١١٦ .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتاني آت من ربي فأخبرني أو قال بشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك

---

(١) معنى بله : قال : الخطابي كأنه يقول : دعما اطلعتم عليه فإنه سهل في جنب ما ادخر لهم .

(٢) سورة السجدة : ١٧.

(٣) سورة محمد : آية ٢٢ .

بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق "[1].

وهذا المعنى تحدث عنه القرآن في موضعين ، قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)) [2] .

وقال تعالى : (..... إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢))[3].

والآيتان جاءتا تهديدا ووعيدا لمن أشرك بالله ، فآية النساء وآية المائدة جاءت في سياق ردع بني إسرائيل الذين قالوا بآلوهية عيسى عليه السلام ، ثم لما أراد الله أن يبشر المؤمنين بجزاء الإيمان أوحى إلى رسوله بهذا المعنى ، والحديث يفتح أبواب الأمل لعباده بدخول الجنة إن خلصوا من الشرك ، وإن ارتكب الكبائر، ويخبر نص الحديث أنه جاء وحياً من ربه بواسطة آت ، فقال آتاني آت من ربي، وإتيان الرسول يكون إما إلهاماً أو وحياً ، والأرجح أن المراد به جبريل عليه السلام فهو الذي يبلغه الوحي ، لأنه كان يقول أحياناً أتاني جبريل ، وفي تنكير آت تعظم لهذا الآت ورفعة لمكانته ، ولما أتي به فذكر صفته ولم يذكر اسمه ، وتعجب الصحابة وفرحهم بهذه البشارة جعلت أبا ذر يستفسر ويقول وإن زنا وإن سرق، وقد ذكرهما لأنهما من الكبائر، وإحداهما اعتداء على حق الله ، والثانية اعتداء على حق الناس، ويقابله في الآية: " ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، وهي أشمل من معنى وإن زنا وإن سرق؛ حيث أوجزت بما دون ذلك، وكأن الحديث هو

(١) التجريد : ١٩٣ ، باب الجنائز .

(٢) سورة النساء :١١٦.

(٣) سورة المائدة :٧٢.

الوجه الآخر والمقابل للوعيد ، فالآيات نذارة والحديث بشارة ، وهكذا يأتي الحديث ليكمل القرآن في المعاني وكلاهما وحي من الله .

ويأتي الحديث ليفسر الآية ويوضحها عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"(١)، وهذا الحديث يوضح قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)(٢)، فطرفا النهار هما الغدوة والروحة ، وزلفاً من الليل فسرها عليه السلام بشيء من الدلجة .

ويفسر الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالي: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٣) بقوله عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)(٤).

وحين نقابل بين كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الله يظهر لنا الفرق بين الأسلوبين :

قال تعالى : " إن الله عنده علم الساعة " يقابلها (ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) .

"وينزل الغيث" يقابلها (ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله) .

"ويعلم ما في الأرحام " يقابلها (لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله) .

---

(١) التجريد الصحيح : ١٨ باب الإيمان.

(٢) سورة هود : ١١٤.

(٣) سورة لقمان : ٣٤.

(٤) التجريد الصحيح : ١٦٨ ، باب الاستسقاء .

" وما تدري نفس ماذا تكسب غداً " يقابلها (ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله).

" وما تدري نفس بأي أرض تموت " يقابلها (ولا تدري نفس بأرض أرض تموت إلا الله).

فجمل الحديث كلها جاءت بأسلوب القصر النفي والاستثناء ، التي تفيد القطع باختصاصه تعالى بهذه الأمور، وإذا استقصينا آيات تفرده بالعلم في القرآن نجد أكثرها قد جاء بأسلوب القصر قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [1]، والنفي والاستثناء أقوى الطرق في توكيد المعنى .

تفصيل المجمل :

جاءت السنة النبوية لتساند القرآن الكريم في التشريع وتبليغ الرسالة، فهي وحي من الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي قد تؤكد بيان القرآن أو تفصل مجمله أو تخصص عمومه ، أو تقيد مطلقه أو غير ذلك من أوجه البيان النبوي .

وفي صحيح البخاري أحاديث كثيرة تفصل ما في القرآن ، من ذلك تفصيله لآية (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .....)[2].

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم فصل في بيان الأشهر الحرم فبين أسماءها ، فعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها

---

(١) الأنعام : ٥٩.

(٢) سورة التوبة : ٣٦ .

أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ....) [1].

إن الله وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها يوم خلق السماوات والأرض ، أنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة، وحكمها باق يزلها على ترتيبها ما كانت تفعله قريش من تقديم شهر على شهر، وفي ذلك دلالة على أصالة هذه الشهور، وأنها أساس الدين وأساس العبادة، وعلى المسلمين اتباعها دون أشهر العجم مما نراه الآن في كل الدول الإسلامية، مما قد تختلط به وقت العبادة، وهذا أمر يدعو له الرسول ، وبه افتتح حديثه في السنة التي حج فيها حجة الوداع ، فهي جزء من إكمال هذا الدين ، حيث كانت العرب في الجاهلية تبدل شهراً بآخر لغرض من الأغراض وهذا يسمى " النسيء " ، وبين عليه السلام أن السنة التي وصل فيها ذو الحجة إلى موضعه ، وأن الحج عاد إلى هذا الشهر بعد أن كانت تؤجله قريش، ومعنى " الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض ....." أي دار على الترتيب الذي اختاره الله ووضعه يوم خلق السماوات الأرض ، وقدم المسند إليه على الفعل لأهميته ، ولأنه مناط الحديث ، وأُكد في بعض الروايات بأن وقد " إن الزمان قد استدار " ، لأنه شأن عظيم أن تعود الشهور كما خلقها الله ، وقال رجب مضر لأن مضر كانت لا تؤجله عن موعده ، وقال بين جمادى وشعبان تأكيداً وإزاحة .

* *

(١) التجريد : ٥٥٠ ، باب المغازي .

المبحث الرابع

الصور البيانية القرآنية في كلامه عليه السلام

التشبيه من أجلِّ الأساليب التي كان يستخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلامه ، لأنه يتجاوز التصريح بالمعنى إلى صورة تكون أغزر دلالة وأوسع معنى ، وتكون ميداناً واسعاً للاستنباط والاستدلال ، فحين تعجز اللغة المجردة من الإيفاء بالمعنى تأتي الصورة مشبعة بالمعاني والإيحاءات ، وتظهر تشبيهاته عليه السلام متفردة في بابها متأثرة بالقرآن الكريم .

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[1].

الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يقتبس عناصر التشبيه من القرآن الكريم، فهو يشبه ما بعثه الله به من العلم والهدى بالغيث الكثير ، والغيث هو المطر الغزير الذي يجلب الخير ويأتي بعد حاجة ملحة ، وسمي المطر غيثاً لأن به يغاث من الموت .

وفي القرآن الكريم تشبيه بالغيث في مواطن الحاجة ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[2].

---

(١) التجريد الصحيح : ٢٩ باب العلم .

(٢) سورة الشورى : ٢٨.

وتشبه الحياة الدنيا بالغيث (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا .....)[1].

وقد ذكر الله بعد الغيث القنوط فدل ذلك على أنه لا يأتي إلا بعد شدة . والغيث في الحديث وصف بأنه كثير أي جاء بكثرة بعد جدب فحصل به النعم . وما أحسن الغيث الكثير حين يصيب أرضاً كانت في غاية الجدب، وهكذا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت بالخير الكثير على قلوب وعقول البشر.

والغيث في هذا الحديث يشبه الغيث في قوله تعالى في سورة الشورى: "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا " لأنه وإن كان المراد به ماء السماء فهو أشبه بالوحي ، وقد أشار العيني إلى هذه الرابطة بين الحديث والآية بقوله: "وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من عنده "[2].

وقول الرسول: "فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير"، يشير إلى الآية في سورة فصلت: " ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم ".

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ " والتي فسرها " ومثل من لم يرفع رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " يشير إليها القرآن في قوله تعالى: " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها " .

---

(١) الحديد : ٢٠.

(٢) عمدة القارئ: ٢/٨٠ ، انظر شرح أحاديث من صحيح البخاري : د/ محمد أبو موسى : ١٧ .

وقد ينتزع الرسول صلى الله عليه وسلم جملة من السياق القرآني ثم يوظفه في معنى آخر ، وهذا مما لا يستطيعه إلا من له قدم صدق في البيان[١].

ففي حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار)[٢] .

وقد ذكر القرآن الكريم قريباً من هذه الصورة البيانية في تشبيه المنافقين ، قال تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)"[٣].

وما أبعد ما بين الرجلين ، فمن استوقد ناراً في الحديث هو الرسول صلى الله عليه وسلم فالألف والسين والتاء للطلب ، وقد كان عليه السلام يطلب الهداية حين كان يتحنث في غار حراء ، أما الذي استوقد ناراً في الآية فهو المنافق ، والمنافقون طلبوا الهدى وألحوا عليه ثم تركوه ، وكلتا النارين جاءتا في سياق الهدى .

وفي صحيح مسلم هذا الحديث ولكن برواية أخرى (مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها ، فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني تقحمون فيها)[٤]،

---

(١) انظر شرح أحاديث من صحيح مسلم : ٦٣٨ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : ٦/ ٤٥٨ .

(٣) سورة البقرة :١٦-١٨ .

(٤) صحيح مسلم : ١٥/٤٩.

فالنار في الحديث أضاءت ما حولها أي أضاءت قلوب المؤمنين بنور الإيمان ممن حولها .

أما في الآية فلما أضاءت ما حوله أي المنافق ، فالمنافق طلب الهداية ثم أنارت له ما حوله فذهب الله بنوره فهو قد ارتكس عن جادة الحق .

وتشبيه الناس بالفراش من القرآن الكريم ، قال تعالى : " يوم يكون الناس كالفراش المبثوث "[١].

ثم يأخذ الحديث مساراً والآية مساراً آخر ، فالحديث يتحدث عن هذا الرجل الذي ظل يغالب قومه ويدفعهم حتى لا يلقوا بأنفسهم إلى النار ، ويذب عن أمته جاهداً من أن يقتحموا في هذه النار ، والآية تتحدث عن المنافق الذي أضاع نور الهداية بعد أن كانت بين يديه .

ويشبه الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة في حديث ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وأنها مثل المسلم فحدثوني ما هي : فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال : هي النخلة)[٢].

وللنخلة ذكر في كتاب الله بأسلوب التشبيه في مقام العذاب في موضعين : الأول في تشبيه مصرع قوم عاد في سورة القمر والثاني في سورة الحاقة ..

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)) .

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)) .

---

(١) سورة القارعة : ٤ .

(٢) التجريد الصحيح : ٤٤.

وكأن حديث رسول الله يشرح آية (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)) في سورة إبراهيم .

قال أنس بن مالك: " إن المقصود بالشجرة هي النخلة "[1]، ولما كان القرآن في قلبه صلى الله عليه وسلم وعلم أن الشجرة الطيبة هي النخلة أراد أن يعرفها للصحابة فقدمها لهم بطريقة أحجية ليقعوا عليها .

كذلك صور مضاعفة الإنفاق في كلامه صلى الله عليه وسلم تصويراً يسير على نهج صور القرآن في المضاعفة حيث جاءت بصيغة التشبيه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت ، أو وفرت على جلده ، حتى تخفي بنانه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شئياً إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع)[2]، كما في آية البقرة: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)" .

وقد يستوحي الرسول صلى الله عليه وسلم عناصر التشبيه من القرآن الكريم فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا

(١) التحرير والتنوير: ٣٣/١٣.

(٢) التجريد الصحيح: ٢٢٠ باب الزكاة .

في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)[١].

وفي هذا إشارة إلى قوله تعالي في قصة الخضر مع موسى في سورة الكهف: "فلما ركبا في السفينة خرقها".

ومما جاء في كلامه صلى الله عليه وسلم في باب الاستعارة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : (إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ....)[٢].

شبهت الدنيا بشجرة لها لها زهور جميلة تعجب الناس ثم حذف المشبه به وهو الشجرة ونُسبت الزهرة للدنيا وهذا ما جاء في قوله تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١))[٣].

يقول ابن عاشور: "الزهرة واحدة الزهر وهو نَوْر الشجر والنبات ، وتستعار للزينة المعجبة المبهجة ، لأن منظر الزهرة يزين النبات ويُعجب الناظر ، فزهرة الحياة أي زينة الحياة أي زينة أمور الحياة من اللباس والأنعام والجنان والنساء والبنين "[٤].

ومن الصور القرآنية في كلامه صلى الله عليه وسلم قوله في حديث شفاعته لأمته يوم القيامة في حديث طويل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

---

(١) التجريد الصحيح : ٣٤٧ .

(٢) السابق : ٢٢٥ باب الزكاة .

(٣) سورة طه :١٣١ .

(٤) ٣٤٠/١٦ .

حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم: " إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض ... "[١].

وهو من قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)[٢].

وقد استعيرت أمواج البحر واختلاطها للناس يوم القيامة على سبيل الاستعارة التمثيلية، حيث يدخل بعضهم في بعض ويختلط المخلوقات حيارى مذهولين في حيرة وخوف وتردد .

وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم النوم موت والاستيقاظ حياة، ففي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ، ثم يقول : " اللهم باسمك أموت وأحيا"، وإذا استيقظ قال : " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"[٣].

والموت لغة ضد الحياة وكل ما سكن فقد مات[٤]، ويأتي الموت مجازا في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع :

– بمعنى النوم ، قال تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢))[٥].

كما ورد في كلامه صلى الله عليه وسلم:

– بمعنى جفاف الأرض ، قال تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥))[٦] .

---

(١) التجريد : ٧٣٨ ، باب التوحيد .
(٢) سورة الكهف :٩٩ .
(٣) التجريد : ٦٧٨ ، باب الدعوات .
(٤) لسان العرب : ٢ / ٩٢ .
(٥) سورة الزمر .
(٦) سورة النحل .

- وتأتي بمعنى الضلال في مواضع واحد من القرآن في قوله تعالي : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))[١].

ويتفق الحديث مع آيات القرآن في استعمال اللباس مجازاً ، فعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت : يا رسول الله إن لي ضرة فهل عليّ جناح أن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور"[٢].

الحديث يدل على حرص النساء على الاحتياط فيما يكون منهن ، وقد روى الحديث امرأة وهي أسماء، ولم يقف أحد على اسم المرأة السائلة أو اسم زوجها، وأسئلة النساء للنبي صلى الله عليه وسلم تنتشر في كتب الحديث ، ولها دلالة على رغبة المرأة في التفقه ، وفي سؤالها لرسول الله بنفسها إثبات لحقها فلم يكن يمنعهن الحياء في ذلك ، وهذا الحديث حديث عظيم ينبه إلى داء خطير في المجتمع المسلم ، وهو التعالي والإدعاء بما لا يملكه ، من ادعاء العلم أو الحظوة أو الوجاهة ، والمرأة هنا تريد أن تدعي أن لها حظوة عند زوجها أكثر مما يعطيها لتغيظ وتكيد ضرتها ، فهل يجوز لها ذلك ، فألقى لها رسول الله صلى الله عليها وسلم الحكم بأسلوب التشبيه ليتضح المعني ، ولتتعرف على مدى خطورته ، حيث إن أسلوب التشبيه يأتي حين تقصر اللغة المجردة عن التعبير عنه ، وجاءت على هيئة جملتين مبتدأ وخبر ، فالمتشبع مبتدأ وجملة المشبه به خبر، والمتشبع على صيغة متفعل ، وصيغة تَفَعَّل فيها معنى التكلف والتصنع ، فتصنع الشاعر أي تكلف في صياغة الشعر .

* *

(١) سورة الأنعام .

(٢) التجريد : ٦٢٢ باب النكاح .

المبحث الخامس

أثر القرآن الكريم في أبواب البديع

الاقتباس في كلامه صلى الله عليه وسلم :

سماه القدماء تضميناً والمتأخرون اقتباساً،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتبس كثيراً من ألفاظ وتراكيب القرآن ، وهي تتناثر في كلامه كالدرر في جمالها في مناسبات ومقامات متنوعة . فمن الجمل المقتبسة (فساء صباح المنذرين)، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى خيبر ليلاً ، وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغر بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله محمد والخميس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[1].

يحكي هذا الحديث قصة المسلمين عن دخول خيبر على لسان الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أتاها ليلاً ، ثم ذكر ما كان عليه الرسول في غزواته عندما كان يصل إلى أرض العدو ليلاً ؛ حيث إنه كان لا يباغتهم حتى يتأكد من موقفهم ، كما جاء في رواية هذا الحديث في كتاب الأذان برواية أنس يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإذا سمع أذاناً كف عنهم ، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم "[2].

وخيبر مدينة تقع شمال المدينة وكانت مليئة بالحصون وكان فيها خير كثير من ماء وطعام ومال، وكانت وكر الدسائس والمؤامرات على المسلمين، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستأصل شأفتهم أولاً ثم يتجه إلى بقية المدن .

---

(١) التجريد الصريح: ٥٣٠ ، باب المغازي.

(٢) السابق : ١٢٠ ، باب الأذان .

وخرجوا بالمساحي والمكاتل، والمساحي جمع مسحاة وهي المجزمة ، والمكاتل جمع مكتل وهي القفة ، لأنهم كانوا أهل زرع ، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد والله ، محمد والخميس ، عبارة تتكون من جملتين منفصلتين الثانية أكدت الأولى ، محمد والله ، جملة قسم أصلها ، والله محمد ، ولكن قُدم المقسم عليه للمفاجأة التي أصابتهم عند رؤيتهم الجيش ، وفي الجملة الثانية حُذف القسم والمسند فأصله والله جاء محمد والخميس ، لضيق مقام التفصيل ولما كانوا عليه من الخوف والفزع ،والواو للمعية ، والخميس هو الجيش سمي بذلك لأن له خمسة أقسام ، قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقه ، فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قولهم قال : "خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين حيث لم تكن قد بدأت المعركة بعد، وتعددت الآراء فقيل قال ذلك لما رأي في أيديهم من آلات الخراب من مساحي وغيرها ، وقيل أخذه من اسمها والأرجح أنها وحي من الله[١].

فعبارة " إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين "هي من القرآن ذُكرت في سياق وعيده تعالى للمشركين المنكرين للبعث والقائلين بتعدد الآلهة وكفرهم بالقرآن الكريم قال تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)﴾[٢].

إي نزل العذاب ، وفي إسناد النزول إلى العذاب وجعله في ساحتهم استعارة مكنية ، حيث شبهت هيئة حصول العذاب لهم بعد ما أنذروا به فلم يعبأوا له بهيئة نزول جيش عدو في ساحتهم ، ثم استعيرت الصورة لكل من أحاط به الخطر[٣] .

---

(١) انظر عمدة القاري، للعيني : ٥ / ١١٦ .

(٢) سورة الصافات : ١٧٤-١٧٧ .

(٣) انظر التحرير والتنوير : ٢٣ / ١٩٧ .

أما في الحديث فقد شبه حصول استيلاء المسلمين على خيبر بغتة في الصباح بهيئة نزول جيش في ساحتهم بغتة، وصارت العبارة تطلق على سوء من نزل به الأمر بغتة .

ومثله اقتباسه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض).

قال تعالى في سورة الأنفال : "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)".

وجاءت الآية في سياق النهي عن موالاة الكفار ففي توليتهم فساد كبير ، وموضع الاقتباس (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) وفي الحديث فساد عريض .

ومن العبارات المقتبسة من القرآن الكريم قوله عليه السلام (أن يمزقوا كل ممزق)، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه رجلاً وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه مزقه ، قال : فدعا عليه رسول الله أن يمزقوا كل ممزق) [1].

قال تعالى في سياق ذكر عذاب قبيلة سبأ التي كفرت بأنعم الله وبطرت بعد خير كثير (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)) .

(١) التجريد الصحيح: ٢٦ باب العلم .

وقوله تعالى في السورة نفسها على لسان الكفار استهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم وإنكاراً للبعث: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)).

والتمزيق لغة التخريق والتقطيع والتفريق[١] فيما هو محسوس ، والرسول دعا عليهم بالتمزيق حيث شبه تفريقهم في الأرض بعد اجتماع وألفة بالشيء الذي يمزق على سبيل الاستعارة المكنية والتصريحية في الفعل ، فقد دعا عليهم بأن ينزل الله بهم عقوبته ويهلكهم كما أهلك قبيلة سبأ ، التي كانت تعيش رغد العيش فبطروا نعمه تعالى فأهلكهم بالتمزيق ، ونكر في الحديث بقول ابن عباس رجلاً أي أي رجل ، ولكن البخاري في حديث آخر في باب المغازي ذكر بأنه عبد الله بن حذافة السهمي ، وهو ممن شهد بدراً ، وعظيم البحرين أي حاكم البحرين ، وفي قوله " فدفعه " عطفاً على محذوف مقدر أي فذهب إلى عظيم البحرين فدفعه إليه ثم بعثه العظيم إلى كسرى ، فدفعه إليه ، وهذه هي الفاء الفصيحة التي تطوي تحتها كلاماً مقدراً ، وفي قوله "كل ممزق " أي أقصى حالات التمزيق ، فكل تفيد العموم حين تأتي منصوبة ، أي أن يصيبهم الله بكل أنواع التمزيق في الملك وفي الجسم ، فالدعوة عليهم بأن يمزقوا أقصى غايات التمزيق .[٢]

وقال عظيم البحرين ولم يقل ملك البحرين لأنه لا ملك إلا لله ثم لرسوله ، وهذا هو الأدب في الحديث عند مقام حضرته عليه السلام ، ويقال الذي مزق الكتاب هو برويز بن هرمز وقد مزق الله ملكه على يد ابنه شروية حيث قتله فتمزق ملكه كل ممزق .

ومما ورد في كلامه عليه السلام وهو من القرآن (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا).

---

(١) لسان العرب : ٣٤٢.

(٢) انظر عمدة القارئ : ٢ /١٨ .

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة ، فقال : ألا تصليان ، فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء بعثنا ، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلا)[1]، الرسول صلى الله عليه وسلم طرق بيت ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب لا لحاجة إنما لحثهما على القيام ليلاً شفقة عليهما وحب الخير لهما ، والطروق زيارة الليل وفائدة ذكر الليل بعدها للتوكيد وتحديد وقت المجيء، وجاء طلبه بأسلوب الحث والتحضيص " ألا تصليان " جملة خبرية تفيد الأمر أي صليا، وقد ردت عليه فاطمة رضي الله عنها بقولها هذا وكأنها كانت تشتكي التعب ، والحال أنها كانت تعاني من خدمة البيت، وفي حديث آخر طلبت من أبيها خادماً ، قالت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله .... " وأصل البعث إثارة الشيء من موضعه[2] فشعر عليه السلام أنها تواكلت، وقد كان ينتظر منها رسول الله أن تقول سنقوم الليل ، لكن ردها جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يولي ويضرب فخذيه ، وجملة " وهو مول" جملة حالية و " يضرب فخذيه " جملة حالية ثانية ، لبيان تعجبه من سرعة جوابها ، لائماً لها ، وقد لابسها ما يلابس البشر من الكسل " وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ، والجدل هو المراء والخصومة[3].

ووردت هذه العبارة في سورة الكهف قال تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)).

في سياق ذكر نعم الله على الناس في ضرب الأمثال لكل شيء ليوضحه لهم على اختلاف إفهامهم ومع ذلك فهو كثير الخصومة والتنازع في الرأي والجدل

---

(١) المصدر السابق : ١٨٠ باب التهجد.

(٢) عمدة القاري : ١٧٥/٧ .

(٣) لسان العرب : ١١/ ١٠٣.

وتظهر شذرات القرآن الكريم حين يقول : (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها وكان بعد ذلك القصاص ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها)[١].

قال تعالى في سورة الأنعام: " مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)[٢] .

وفي حديث طويل يذكر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قصة موسى مع الخضر حين قال أنا أعلم الناس ، ويقتبس كثيرا من آيات سورة الكهف التي وردت فيها هذه القصة ، فعن عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَحَمَلا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا}، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: {آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا}، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ} قَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا}، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ: تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا} قَالَ: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ

(١) المصدر السابق : ١٨ .

(٢) آية :١٦٠.

عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أَعْلَمُهُ، {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، فَانْطَلَقَا فَإِذَا غُلامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ}، {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ} قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: {لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ» :يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا».[1]

والآيات المقتبسة من القرآن : فاتخذ سبيله في البحر سربا – آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا – أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا – هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا – قال إنك لن تستطيع معي صبرا – ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا – قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا _ قال لا تؤاخذني بما نسيت – قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا – فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية

(١) التجريد :٣٨-٣٩.

استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا جدارا يريد أن ينقض فاقامة – لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذه فراق بيني وبينك .

ومزح كلامه صلى الله عليه وسلم بآيات القرآن جعل لها طعما خاصاً

الطباق والمقابلة :

الطباق هو الجمع بين متضادين في الدلالة مع مراعاة التقابل ، وهو إما إيجابي فيكون بين اسمين أو فعلين أو حرفين ، وسلبي يكون بين الكلمة ونفيها ، ثم يتحول الطباق إلى مقابلة إذا تجاوز ضدين ، والتقابل والتطابق من الأساليب التي تضيف جمالاً وقوةً ووضوحاً للأسلوب ، ولها أثر نفسي على المتلقي يلامس نفسه فهي ظاهرة كونية وهي موجودة في جميع الكائنات.

التطابق والتقابل من أبرز الظواهر في القرآن الكريم ،وكأن القرآن كله قائم عليه ، وعلماء التفسير يوجدون المطابقة بين آية وآية . وبين أول السورة وآخرها ، وبين سورة وسورة وبين سور وسور . وفيه تظهر لنا صورتان ، كل صورة غنية بمعانيها ، وتتحد المباني في الصورتين ترتيباً ، ولكل مقابلة طريقة في البناء عن أختها ،وتكثر في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في موضوعات مختلفة لكونه مبيناً للوحي وموجهاً لمن نزل عليهم الوحي مستوحياً ذلك من كتاب الله تعالى .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما استُخلف حليفة إلا له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله "[1].

بدأت المقابلة بجملة تعد الجذر في المعنى ، ثم يأتي بعدها التفصيل في صورة مقابلة ، حيث تتسع معاني الجذر ، متفرغة بأغصانها .

---

(١) التجريد : ٧٠٠ ، باب القدر.

ومثل هذا في القرآن الكريم (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧))[١]، حيث جاء الإجمال وبعده التفصيل .

وقد يأتي الحديث بجمل المقابلة مباشرة ،عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ متكبر)[٢].

وتأتي أساليب تقدم لهذه المقابلة كأسلوب القصر في حديث ما استخلف خليفة ، والجمل الخبرية المبدوءة بألا كما في حدث ألا هل أخبركم ، أو تشبيه أو غير ذلك من الأساليب التي من شأنها توكيد المعني وتجميله .

ويتضح هنا قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم على بناء المعاني والتصرف فيها ، مع سهولة الألفاظ وتحدر الكلمات وسهولة المخارج خفيفة يسيره عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ، ومثل الذي يقرأ وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران)[٣].

والمقابلة تدعو إلى النظر في المتقابلين والتغلغل في أحدهما لترى الوجه الآخر وهو المعنى الثاني ، تتغلغل في باطن الخير لترى الشر ، وتتغلغل في باطن الشر لتدرك قيمة الخير . وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى أصحابه أجمعين .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٦-١٠٧ .

(٢) التجريد الصحيح : ٦٠٠ باب التفسير .

(٣) السابق : ٦٠١ باب التفسير .

نتائج البحث:

للقرآن أثر واضح في كلامه صلى الله عليه وسلم ويأتي على الصور الآتية:

١ – يأتي الحديث ليؤكد الآية أو يشرحها أو يضيف إليها مما أوحى به الله إليه.

٢ – الكلمات القرآنية مبثوثة في كلامه صلى الله عليه وسلم ، فيستخدمها بنفس معانيها التي جاءت في السياق ، أو قد يضيف إليها معنى آخر .

٣ – وقد تأتي اقتباساً للعبارات والجمل القرآنية، وذلك في مناسبات مختلفة .

٤– ويأتي الاقتباس في الصور البيانية في الموضوع نفسه أو في موضوع آخر.

المصادر والمراجع

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م .
- التحرير والتنوير : الإمام محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر .
- الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتاب العربي ، عام ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- التجريد الصحيح : (مختصر صحيح البخاري، ضبطه وشرحه: د٠ مصطفى ديب البغا ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- صحيح مسلم بشرح النووي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري : للشيخ العلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .
- غريب الحديث : للخطابي ، تحقيق : عبد الكريم الغرباوي ، نشر جامعة أم القرى – مركز البحث العلمي وإحياء التراث – عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : بدر الدين العيني ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين بن منظور ، دار صادر ، بيروت .

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات،،،

* * *